بل العار.. أن ترتدي الجاهليةُ ثوبَ الإسلام

حديثي لا يتناول موقف شخص بعينه، ولكنه يُعنىَ بحالةٍ عامة، ما تكاد تخبو حتى تطفو من جديد، وهو موجَّهٌ بشكل خاص للبعض من الذين ما زالوا في طور الذكورة ولم يبلغوا طور الرجولة بعد.

وفي البداية، أودُّ أن أنصحَ هؤلاء الفحولَ الأعرابَ ممن لا زالوا ينظرون إلى المرأة على أنها عار وشنار وخراب ديار، أن ينظر كل واحد منهم إلى عيني أمّه بشكل مباشر ليدرك كم من (العار) الذي لطخته به هذه المرأة حين حملته في بطنها دون رغبة من معالي فحولته، وكم من (العار) الذي مرَّغته به يداها وهي تهدهده وترضعه وتربّيه وتعلّمه حتى أصبح للفحل لحية هي أقرب للحية التيس من لحية الإنسان الذي كرّمه ربّه.

ولينظر التيس اليعربي إلى عيون أخواته بشكل مباشر، ليقرأ من خلال نظراتهن الخطر المحدق بذكورته وكبرياء فحولته، ويحسب الاحتمالات التي يمكن لأخواته فعلها لجلب العار إلى ساحته، فيسارع إلى التخلص منهن، و(زحلقتهن) إلى أقرب ذكر يتقبّل ستر هذا (العار)، حتى ولو كان تيساً مدمناً على البرسيم مثله.

وإذا كان ممن (ابتُلي) ببنات من صلب ذكورته وغصباً عن لحيته التيسيّة، فالحل بسيط، وقد سبقه إليه أجداده من الأعراب الجاهليين، وهو الوأد، حتى يداري هذه السوءة وهذا العيب وهذا النقص.

ابتلانا الله برجالٍ يظنون أنفسهم رجالاً، مازالوا يتأففون من المرأة ويترفّعون عنها، وينظرون إليها بشك وريبة، ويعاملونها كمتّهمٍ لا يمكن أن تثبت براءته

obeikandl.com

حتى يموت.

هؤلاء الأشكال هم أجبن الناس وأضعفهم أمام المرأة، وسبيلهم الوحيدة للسيطرة عليها هي القوة، تجدهم كالثيران بين نسائهم المقربات، ينطح تلك ويرتح الأخرى، وتجدهم كالذئاب مع بقية النساء، يفترس تلك دون وازع أو رادع من دين أو ضمير أو أخلاق، ويرمي ببقايا الأخرى للكلاب، وما زواج المثنى والثلاث من دون داعٍ، والمسيار، والمسفار، وكثرة الطلاق عنّا ببعيد، ولووجد هؤلاء سلطة أكبر كالتي حظي بها ثيران داعش لخطفوا النساء واستعبدوهن وباعوا واشتروا فيهن دون أن يرفّ لهم جفن، هؤلاء العينات يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم غير مقنعين للمرأة، وأنها لم تقبل التعايش معهم إلا رعباً وخوفاً واضطراراً ومصادفة وورطةً، وليس حباً فيهم، ولذلك فإنهم قلقون منها باستمرار، وخائفون من تفلّتها من بين أيديهم، ودائمو التحذير منها، ودائمو التحقير لها، ويعملون ليل نهار على إخضاعها وإضعافها أكثر وأكثر، وسلبها كامل حريتها، ويقفون حائلاً دون أي خطوة للأمام في سبيل حقوقها.

ولم يعلم هؤلاء المساكين أن أكبر رادع للمرأة عن الانحراف هو أخلاقها فقط، وإنها لو أرادت لفعلت الأفاعيل وهم (فاغرون) غصباً عن (شنباتهم) وعن كل احتياطاتهم، وغصباً عن حزام عفتهم الذي لا يجدون كرامتهم ولا يعرفون شرفهم إلا من خلال تطويقهن به.

وفي الحقيقة، إنني لا أستغرب هذا التعامل السيء مع المرأة، وهذه الألفاظ القبيحة التي لا تليق بهذا العصر حين تصدر من إنسان جاهل (على قدّه)، ولكنها للأسف صدرت من أناس محسوبين على العلم والدين والثقافة والوعي، فما الفرق بين هؤلاء وبين جدهم الأمي الجاهلي الأول؟!

أنصاف المتعلمين وأنصاف الدعاة هؤلاء، من أصحاب شهادات (أحكام الفساء) وأصحاب شهادات (الشقق) الكرتونية، والتائبين من التفحيط، ومن تفلت منهم ألفاظ من إرث (الورعنة) القديم، طالب بعضهم من قبل بما لم يقل

به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا صحابته من بعده، بل بما لم يقل به حتى أبو لهب في زمانه، حين طالب الأبَ بعدم الاختلاء بابنته، والآخر الذي فضّل هدم الحرم وإعادة بنائه من جديد للفصل بين الرجال والنساء، والذي نهى عن كثرة ارتياد الحرم لما فيه من المنكرات، حسب قوله، في سياق الحديث عن كشف وجه المرأة، ولا أنسى من اتهم نساء السعوديين جميعاً بأنهن مشاريع زانيات، وأنه لولاه (وربعه) لتعبنا من جمع اللقطاء من الشوارع.

هؤلاء وأمثالهم تشكل المرأة لهم هاجساً كبيراً، وكابوساً لا يعرفون الفكاك منه، ولذلك وجدوا ضالّتهم في العادات والتقاليد، وبما أن العادات والتقاليد تتغير بتغير الزمان قاموا بإلباسها حلّة الدين لكي تكتسب الثبات، وتوسلوا النصوص وتفسيراتها الغريبة العجيبة، وقلبوا الحقائق، وبدّلوا المنطق، وحرّموا الحلال وأحلوا الحرام، كل ذلك لأجل محاصرة المرأة، وكلما ازدادوا رعباً منها ازدادوا إيغالاً في التنطع والتشدد والمخالفة والمضايقة والمحاصرة، بل والجريمة، كالعضل والقتل والحبس وغير ذلك، فأعادوا إلى الواقع الاجتماعي أسوأ ما في تاريخه من عادات باسم الدين، ولا أستغرب غداً أن يظهر لنا من بينهم من يُحِلُّ قتلَ البنت شرعاً إن خشي والدها منها العار.

إن الحديث عن المرأة في مجتمعنا ذو حساسية عالية جداً، ولذلك فإن المجتمع ما زال يصدّق بأن كل من تحدّث عن حقوق المرأة إنما هدفه أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وبأن كلّ من ضيّق الخناق على المرأة فإنما هدفه حماية المجتمع وإعلاء راية الدين، والصحيح الذي لا مناص عنه ولا مِرْيَةَ فيه، أنه بقدر الحرمان يكبر الأمل، وأن كثرة الضغط تولد الانفجار، وأن الماء يشقّ الصخر، وأن المسجون لا يرى سوى باب الزنزانة، وأن الانفلات لا يكون إلا من العقال، وأن من جعل هذا المجتمع شاذّا عن بقية مجتمعات الدنيا هو من يعرض النساء، من حيث لا يدري، إلى التعرض للزلل والانحراف أثناء محاولاتهن المستميتة والخطرة للتخلص من الظلم وكسر الحواجز، والمقاومة لواقعهن المزري سرّاً أو جهراً.

إن من جعل من المرأة (قطّة مغمّضة) يستطيع أن يلعب بمشاعرها أغبى رجل هو من جنى عليها، ومن احتقرها ووضع من قيمتها حتى وهي داخل منزلها، ومن جعلها حبيسة خيالاته وأوهامه المريضة حتى مرضت نفسياً معه، هو من يحب أن تشيع الفاحشة في المجتمع، ومن حرّم قيادتها لسيارتها بنفسها وحلّل للسائق (غلام خان) أن يختلي بها لوحده (ويبصبص) لها وهي في كامل أبهتها وعطرها وأناقتها، هو من يحب أن تشيع الفاحشة في المجتمع، ومن مانع عملها في السوق لبيع (الأندروير) لزوجته وفضّل أن تتبضّع سنتياناتها من أيدي (روجيه)، هو من يحب أن تشيع الفاحشة في المجتمع، ومن حاربها في لقمتها وحرمها من الاكتفاء المادي وساعد في إفقارها بحجج مبنية على هواجس فارغة من وراء الاختلاط وسداً لذرائع متوهمة من نفوسٍ معتلةٍ وجعلها تمدُّ يدها للغير، هو من يحب أن تشيع الفاحشة في المجتمع، وليس من احترمها وطالب الناس باحترامها، وطالب المجتمع باستقلالها وعملها ومنحها كافة حقوقها المادية والمعنوية، ومعاملتها كإنسان عاقل وليس كطفلٍ أو بهيمة.

ختاماً، فإن من يزرع الثقة في أهل بيته ويحترمهم ويحظون معه بهامش من الحرية المقبولة والمعقولة أسوة بالمجتمع ويشعرون معه بالأمان، سيحظى باحترامهم وتقديرهم له حاضراً وغائباً، أما (عنتر) القوي الأحمق الشجاع الأبله البطل الغبي المضطرب نفسياً وروحياً المتعالي على أمه وأخته وزوجته، فإنه يجب أن يخاف على أهله حتى وهو موجود، وحتى وهو (محملق) بعينيه الكبيرتين الواسعتين اللتين لا تريان شيئاً، وليعلم عباس المنتبه الحساس أن الماء ربما يجري من تحت رجليه وهو واقف بالباب راكزاً رمح فحولته ممتشقاً سيف ذكورته يراقب السماء ويحرس الفضيلة المزقة.